

وهزتها فانفجرت الفتاة
غيطاً تقول : « نفتش
عليه فين دلوقت والمخاليق
نايمه ؟ انت انهيلتي
والا إيه ؟ »

فلما يئست منها
صبيحة صمدت إلى
السطح ، وكان ضوء
القمر يغمره ويغمر
مأعليه من أحمال الخطب

أَمْرُ إِمَامٍ

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّةٍ لِلْأَسْتَاذِ فَخْرِي أَبُو السَّعُودِ

و (كيزان) النذرة وأقراص (الجيلة) ، ويمتد إلى آخر
البلدة . وكان يقوم في وسط البلدة منذتنا الجامع القبلي
وجامع الممعة البحري وتترأى من بُعد أشجار
السرو والنخيل ، وانحدرت صبيحة عدداً من
الدرجات ومشت إلى الباب وفتحتة قليلاً قليلاً .
فلما تأكدت من انقطاع الرجل خرجت تتلفت يمنة
ويسرة ، ثم دلفت إلى الطريق الواسع وكان يسير
محاذياً فضاء كبيراً تمتد فيه البيادر ، وما تزال النوارج
قائمة فيها كالأشباح القابعة وسط المحصول وتسلك
بجانب المحيطان متضائلة ملهمة ثيابها لا يبدو منها إلا عين
أو عينان حتى صارت على مقربة من دكان قائم بجانب
جزيرة ضخمة ، تنبسط أمامه بركة واسعة تتلألاً
كالقطة في ضوء القمر الصافي ، ووقفت صبيحة على
مدى تستمع إلى حديث القوم المتجمعين أمام الدكان
لعلها تميز صوت ابنها ، فقد كان من عاداته أن يسهر
هناك ، ولكن لم يطل بها الوقوف حتى لمحها القوم ،
وانتصب أحدهم قائماً فسطع ضوء القمر على مقدمة
لبدته وفوهة بندقيته المدلاة خلف كتفه ، وصاح :
« مين اللي هناك ده ؟ » فارتدت صبيحة على أعقابها
مسرعة إلى الدار ، ولكن الحفير ارتأب في أمرها
ولاحقها أمراً بالوقوف مهدداً بإطلاق النار ، فلما

كان القمر يرمي شعاعه من طاقة في الدار على
جسم مضطجع بين الجلوس والرقود ، مشتمل
بجلايب سوداء ، ومضى هزيع من الليل وقامت
جبلبة بين الأوز في حظيرته ، فالتبته صبيحة من
غفلتها بين النوم واليقظة ، بين أحلام النوم الخفيفة
وهواجس اليقظة المؤلة ، ورفعت الثوب عن وجهها
فبدا جميلاً فاتناً أبيض ممتلئاً ، وإن كان الهم والقلق
مرتسمين في عينيها ، وقامت إلى جانب من الغرفة
مظلم قليلاً ، وكانت تستطيع أن ترى من بعد أن
الفراش الذي أعدته هناك كان ما يزال كما أعدته
لم يمس ، ولكنها لم تفتش حتى تحسسته بيدها
فوجدته خالياً

وتهدت واتجهت إلى جانب آخر من الحجرة ،
فعمرت بجسم متمد فاهوت إليه تهززه قائلة :
« مبروكة ، بت يا مبروكة ، اسحى يا بت أخوك لسه
ما جاش » ، فالتبته الفتاة بمض الانتباه وقالت :
« طب وأنا مالي ؟ حاسل له إيه ؟ » ومشت صبيحة
إلى رف غائر في الحائط فاستخرجت منه حبرتها
الرفيعة القديمة العهد ، فالتفت بها وعادت تفتش
مبروكة التي كانت قد انقلبت إلى جانبها الآخر وراجعت
نومها ، قالت : « قري يا بت نوسيني ، قومي نفتش عليه »

أدركها كشفت عن عينيها قليلاً ونظرت إليه
فارتد الرجل القهقري وقال : « سا الخير يا أم
إمام » فسأته هل رأى إماماً ؟ فأجابها بالنفي ،
فتركته وأسرت عائدة ، ووقف الرجل يتأملها
ملياً وهي تتعد عنه ، ثم عاد إلى رفاقه وهو يتحرق
أسى على أن لم يطل حديثه معها أكثر مما كان ،
وجعل يصف لأصحابه سحر عينيها وفتنة منظرها
وتأثير كلماتها ويبدى ويعيد في ذلك ، وقد أثار
وصفه لهفة القوم فاستزادوه ، وراح كل منهم يصف
كيف رآها مرة وكيف سحره جمالها ، ولا غرو
فقد كانت صبيحة مازال تحتفظ بجانب وافر من ملاحظتها

ولدت صبيحة في بيت عز ، فقد كان أبوها
عمدة القرية ثم خلفه أخوها بعد موته ، فنشأت
مدللة ناعمة ، وعرفت بالجمال البارع من صغرها ،
وجيلت روحها على المرح والحبور ، فكانت قرة
عين أهلها ومتعة نفس من رآها ، وكان السرور
والضحك يتبعانها حيث ذهبت ، تبسم لكل من
رأت وتداعب كل من عرفت ؛ على أنها ما كادت
تبلغ العاشرة حتى خيف عليها من الحاسدين والأشرار
فأسدل عليها الحجاب الذي هو ميزة بنات الأعيان
في الريف ، ولكن الحجاب لم يتغلب على الحبور
المركب في طبعها ، فكانت تقتنم كل فرصة في أطراف
الليل والنهار لمجالسة أترابها ومفاكحة قريباتها
وتكاثر خاطبوها لما كان يملأ القرية كلها من
حديث جمالها ولطفها ، ثم فاز بها ضارح غنى كان
أبوها الفاني في حاجة إلى معونته ليتخلص من بعض
ديونه ، وكان ذلك الزوج ، على تقواه واستقامته ، شكس
الطباع عبوس الوجه صارم العادات ، لقيت صبيحة
المرحة المطراب في معاشرته عناء ، وكبحت ميولها
كبحاً ، وبدأ الوجوم وشروء الدهن يحلان محل
مرحها وسرعة بديتها ؛ وكانت أحياناً تضيق بأفعالها

ذرعاً فتغضب وتلوذ ببيت أخيها العمدة الجديد على
الرغم منها ، وهناك كانت تقع بين نارين ، فانه لم
يكن بين زوجها وأخيها إلا الجفاء والنفور ، وكان
كلاهما عنيداً مستكبراً ، فلا هذا يأتي لاسترجاعها
ولا ذلك يخاطبه في شأنها ، وكانت لشعورها بالحرج
في بيت أخيها ترهق نفسها بالامتناع عن الأكل
والاحتباس في بعض الحجرات ، فينال ذلك من صحتها
ورزقت صبيحة من الشيخ إبراهيم ابنتها مبروكة
ثم ابنيها جباراً وإماماً ، وإذا كانت الأم تؤثر ابناً على
ابن فقد كان إمام لا شك أحب أبنائها إليها ، لأنه
كان الأصغر ولأنه على صفه كان يفوق أخاه بسطة
جسم ووفرة عقل وشجاعة قلب ، وما تزال تذكر
كيف كان في صفه يتحمل من الآلام ويؤدي من
المهمات ما ينكل عنه أخوه ، فهو يوم طعما ضد
الجدري تحمل مبضع الحجام بمتهى الثبات بينما ملأ
أخوه الدار صياحاً ، وهو كان يتطوع بالخروج
ليلاً لشراء التبغ لأبيه حين يفتقر أخوه من
مجاورة عتبة الباب ، وهي لا تنسى كيف أرسلتهما
يوماً إلى السوق الأسبوعية وعهدت بالنقود إلى جابر
لكبره ، فعادا وقد غبن جابر في الصفقة ، ولما أراد
أن يعطيها بقية النقود اتضح أنه قد فقد الكيس
في عودته ، فأرسلت إماماً إلى السوق مرة أخرى
فأعاد إلى الجزار لحمه المذتن ، وفي عودته عثر على
الكيس على قارعة الطريق ، وكان من حسن الحظ
أن لم يره أحد من المارة في ذلك اليوم المزدحم
وازدادت صبيحة تعلقاً بصغيرها لما مات أخوه
وصار إمام وحيداً ، وقد واظب أبوه على إرساله إلى
مكتب القرية حيث حفظ جانباً كبيراً من القرآن
الكریم ، وكان خاله العمدة يستطيل الاستماع إلى
تلاوته ، ولما علم بعزم أبيه على قطعه عن المكتب
واستلحاقه في عمل المزرعة ، أسف وهم أن يشير على
زوج أخته بأن يكمل تعليم ابنه ، ولكنه كان يعرف

والحرية والنسيم؛ وكان وهو يتقلب في فراش الداخلية الناعم يتوق إلى الاضطجاع على قبة الفرن، وإلى الاستيقاظ صباحاً مع الطيور المفردة والأشعة المتوهجة، فإذا دنا موعد إحدى المطلات راح يعد الأيام عدا وعاد إلى أهله مسرعاً فقتلها أمه بذراعيها مفتوحتين وتضمه ضمّاً طويلاً تشفي قلبها وتدفي صدرها بقربه وكان يقضى العطلة في بهجة مستمرة، يقضى النهار في الحقول يساعد أباه ويقلد الفلاحين في كل ما يفعلون، يسوق الماشية ويركب النورج ويعزق الأرض، ويدير البدالة لرى الزرع، ويضطجع معهم ساعة القيلولة تحت ظل الشجر، ويؤاكلهم ويستمتع بأغانيهم وينصت إلى حكاياتهم، وهم أشد منه حبوراً بوجوده بينهم، وأشوق إلى الاستماع إليه. كان يغبطهم على حياة الطبيعة والحرية التي يحبوها، ويود لو يستبدل الفأس والمقطف بالقلم والكتاب، وهم يغبطونه على حياة الراحة والدعة والنظافة والتنوير التي يحياها ويتمنون لو استبدلوها بحياة الكد المستمر حتى إذا ما قاربت العطلة نهايتها بدأ يعاوده الهم وينكسف باله؛ وتبدأ أمه في الخبز والطهي والشراء والحزم والربط، تُعد له زاداً وفيراً من طيبات الريف ينتظره زملاؤه بفارغ الصبر، وتودعه ويودعها وعبرتهما تجري، وتظل أياماً بعد ذهابه حزينه القلب دامة العين، ويظل أياماً بعد عودته إلى المدرسة وابتداء الدراسة كثيلاً أسفاً على دنيا السعادة والحبور التي خلفها وراءه، مشتاقاً إلى العودة إليها، مستغلاً كل علم، مستزلاً كل معلم، نافراً من حجة زملائه الثائرة، ميالاً إلى العزلة، حتى يتضاءل صدى الريف في ذاكرته شيئاً فشيئاً، وينغمر في الجو المدرسي من جديد

وإنه ليلعب في الفناء مع زملائه يوماً إذ دعاه ضابط المدرسة وسلمه بريقة، ففضها وقرأها فإذا هي تنعى إليه والده، تخف سريعاً إلى قريته فوجد

نفسية الرجل، كان يعلم أنه يتعمد مخالفة اشارته كبرياء وخشية أن يقال إنه ينقاد لآرائه ويأتمر بأوامره لكونه العمدة

وكان للعمدة صديق متعلم من أهل المركز يزوره بين حين وآخر، وكان يحب إماماً حب العمدة إياه ولا ينسى أن يتحفه بهدية كلما جاء، وقد ذكر العمدة لصديقه همّام ما اعترمه أو ما نفذه فعلاً الشيخ إبراهيم، من قطع إمام عن المكتب وتشغله في الزراعة، فنهض همّام أفندى إلى أبي الولد في حقله، وكان هذا الأخير يحمله ويحبه لمطفه على ابنه، وبعد أن لطف همّام الغلام ودفع إليه هديته المعتادة، قال لأبيه مترقفاً في الخطاب: «ابنك ده خسارة في الغيط يا شيخ إبراهيم، ابنك ده ح يبقى باشا انشاء الله، تعالى يا امام باشا!» فوقع قوله من نفس الرجل موقعاً حسناً، وبرقت أساريره طرباً وقال: «انت تشوف كده يا حضرة الأفندى؟» قال: «امال؟ يا إذن الله يمكن مصر تتحرر على يديه!»

وكان الغلام يعلم أن همّاماً يمتدحه امتداحاً كبيراً فأطرق خجلاً وإن لم يدر معنى كلمة «تتحرر» هذه وحرار في تفسيرها، وظنها مشتقة من «الحر» ولم يدر أى علاقة له بمصر، وإنما ظن أنهم يريدون إرساله إلى مصر القاهرة للتعلم، وظل بعد ذلك كما رأى همّاماً يتذكر كلمة «تتحرر» هذه، ويهم أن يسأله عن معناها، ولكنه يشئ خجلاً، واشترى له أبوه كل ما يلزم، وتوالى همّام إدخاله المدرسة الابتدائية بالمركز، وانتزع من حضن أمه انزعاجاً، ولم تكن لترضى بفراقته لولا صرامة والده التي لا تقبل اعتراضاً، ولولا لقب الباشوية المنتظر

وغاب إمام عن أمه شهوراً، وكان لا يعود إلى القرية إلا في عطلات العيد ونصف السنة والصيف وكان رغم تفوقه المستمر على زملائه يحقت قيود التعليم ويحن إلى العودة إلى القرية، إلى الحقول والترع

وعودته إلى القرية ، وكان في كل مرة يخترع لأمه عذراً مختلفاً ، من ادعاء العطلة أو التظاهر بالاحتراف فلا تغلظ عليه بل تسرها رؤيته على كل حال

كان امام قد دخل في سن المراهقة الذي تتغير فيه طبائع الناشئ ، تغيراً كبيراً وتبدل نظرتة إلى الحياة ، وكان قد نما جسمه وامتدت قامته وصار شديد العناية بمظهره ، وكان في تلك المرحلة الخطيرة من حياته في حاجة إلى يد حازمة تلزمه جادة الصواب ، وكان خاله يعلم ذلك ولكن كل جهوده ذهبت هباء أمام حنان الأم الجاهلة المفرط ، وانتهى العام الدراسي بسقوط امام في امتحان الشهادة الابتدائية ، وعلم بسقوطه وهو في القرية فأعلن أنه لا يريد معاودة الدراسة ، وأصر على البقاء في القرية لإدارة أملاكه التي ورثها عن أبيه

وضرب بنصائح خاله وبغضبه عرض الحائط وتولى بنفسه تأجير الأرض وأشرف على بعضها بنفسه ، وبذل في ذلك كل جهده ، وأقبل على العمل بحبه المتأصل لأعمال الفلاحة ، وساعده تنوره الذي اكتسبه من الدراسة بحيث نجح في أعماله في السنة الأولى نجاحاً طار له لب أمه فرحاً وطال عنقها تها ، وكان حديث أهل القرية ؛ وفرح له العمدة ذاته وازدهى وزال ما كان بينه وبين ابن اخته من جفاء ، وصار امام معبود القرية ومكان الاحترام من شيوخها وموضع المحبة من شبانها ، ومطمح أبصار فتيانها ، وما لبث أن صار له من أولئك أصحاب ومن هؤلاء صاحبات

غير أن من صفات الشباب غير انجرب الترجيح بين الطرفين ، والتراوح بين النقيضين ، فأعقب النجاح الذي أصابه امام في عامه الأول دماراً شديداً في عامه الثاني ، فقد اندفع في طريق الاسراف والتبذير ، وبائع في شراء فاخر الثياب وأنيق الأثاث وزاد فأولم الولائم وذاق الخمر وأدمن السهر وغفل

معالم المآثم قد قمت حول داره ، ودخل إلى أمه فقامت إليه تضمه وسط عرايتها المتدفقة ، وكانت قد لبست ثياب الحداد السوداء ، وشدت على رأسها منديلاً أسود بدا فيه وجهها الأبيض شديد الفتنة ، وكانت هي التي أصرت على استدعاء امام بينما كان خاله العمدة يرى ألا يزعم الغلام بهذا الخبر فجأة ولا يقطع عن دروسه في غير جدوى ، ولكن عاطفة أمه التي أثارها هذا المصاب المفاجئ لم يكن يبردها إلا أن تتمزى برؤية ابنها امام وضعه إلى صدرها ملياً استمر المآثم أياماً وتوافد إليه المزون من أطراف البلدان المجاورة ، ثم انقضت معالم الحداد ومر أسبوع وتلاه آخر ، وإمام وأمّه يواظبان على زيارة قبر والده والتصدق على الفقراء عنده وتلاوة القرآن ، وتولى العمدة النظر في شأن الأملاك التي تركها المتوفى ، وترك امام إليه أمر إدارتها وتأجيرها لمن يشاء ، إذ لم يكن امام إلى ذلك الوقت إلا حدثاً لا يهتم إلا بتمتعات الحياة الروحية ، ولا يلتفت إلى المادة ولا يحفل بالسال ، واستمر المقام بالريف واستراحت أمه إلى وجوده بجانبها ، وكانت رؤيته بقوامه المعتدل وزيه الحضري تملأ نفسها غبطة وتمزيها عن فقدان بعلمها ، وهي التي لم تلق من بعلمها في حياته ما تطمح إليه أوثقها من عطف ورعاية حتى لمح العمدة ابن أخته يوماً يسير بعض الفتيان من سنه ، فعجب من استمرار إقامته في القرية ؛ وفي عصر ذلك اليوم زار أخته في دارها وألح عليها وعلى امام في ضرورة عودته إلى مدرسته ، وكان امام يهاب خاله ويستحي منه فلم يسمعه إلا الإذعان على كرم ؛ بيد أن العطلة الصيفية مالبثت أن حلت وعاد امام إلى القرية كعادته ، ولم يرجع إلى مدرسته في مستهل العام الدراسي إلا بعد إلحاف خاله الذي دفع له المصاريف وأعد له كل شيء ، ولكن تكرر بعد ذلك انقطاعه عن المدرسة

عن الميرى وشره » ، قال : « مش انت ياولية اللي عازره الوصاية على ابنك قبل ما يفرتك الفدانين ؟ » قالت : « يفرتكهم يفرتكهم فداء ، وصاية على مين ياخويا خلا الشر ؟ دابق ماشاء الله طول وعرض . اللي ما حجرنا عليه وهو عيل ح يحجر عليه بعد ما بق أطول منك ؟ »

بهت الرجل لهذا التناقض السريع الذي لا يقدر على مثله إلا النساء ، ولا يكاد يتصوره الرجال ، وكان رغم إخلاصه لأخته وابنها وحرصه على مصلحتهما ، يتوقع بعض النفع من وراء إدارة أملاكهما الواسعة وأحس الآن أن خوف أخته من انتفاعه بالأرض هو سبب تغييرها رأيها ، وغاظه تنبيهها إلى نيته ، وهاجته ارتياها في ذمته ، فقام غاضباً وهو يقول : « أما انت يا صبيحة زدتها لحد ما خلتي الواحد مش عاوز يبيض ف وشك ! ليه ما قلتيش كده قبل ما اسمي واحني ؟ أودي وشي فين دلوقت من الناس اللي اترجيتهم ؟ معلش ، النوبة الحاية ابقى تقي ف وشي إذا كنت أمحشر لك في حاجة والا أعتب باب دارك حتى »

وكان أخوها لا يزور بيتها في حياة زوجها لما كان بين الرجلين من تدابر ، فلما مات الشيخ ابراهيم أصبح العمدة يتردد على صبيحة من حين إلى آخر يؤانسها وينظر في حاجاتها ، أما بعد ذلك اليوم فإنه برّ بقسمه ولم يدخل بيتها بعد ذلك ، ولا يدخل في شؤونها التي سارت من سيّ إلى أسوأ ، فإن إماماً تمادى في غيه ، وأتى التبذير والشراب وزيارته للقاهرة على فدانين أبيه واحداً فوحداً ، فلم ينقض عامان حتى تلاشت تركه أبيه التي تركها باسمه ولم يكتب قيراطاً واحداً منها باسم زوجته ، والتفت الشاب إلى حلي أمه يسرقها تارة ويحتال عليها فيها طوراً ويفتصبها إياها حيناً ، حتى أملت الأسرة وصارت في شر حال ، وتقلصت عن الدار ظلال النماء ،

عن شؤونه ، وكانت أمه تنصحه نصحاً ضعيفاً بغري بالتماذي ، وتناميه ممانعة أئتمية تحرض على العناد والاسترسال ، وكان التعليم الذي ظفر به وحسره أنه قد رفع عقليته عن عقليتها درجات ، وزاد قوة إرادته على إرادتها أضعافاً ، وأصبح ينظر إليها من عسل نظرة يمازجها الرئاء والازدراء

وما راعها إلا أن علمت ذات يوم أن ابنها قد باع فداناً وقبض ثمنه منذ أسابيع ، فهرعت إلى أخيها تستنجد به ، فأشبعها تعنيفاً على أن لم تستمع إليه من بادى الأمر ، وأكّدت لها أن ابنها لن يفلح إلا أن يعود إلى دراسته ويشار على ما أعد له وعرض عليها أن يتولى الوصاية عليه ويعيده بالرغم منه إلى المدرسة . ويتولى عنهما إدارة أملاكهما حتى يشب الفتى فيسلمها إليه ، فارتاحت إلى ذلك الحل وشكرت أخاها ودعت له خير دعاء ، وقصد العمدة من غده إلى المركز واتخذ الاجراءات التمهيدية وقابل بعض أصحابه ليساعده على إنهاء العمل بالسرعة المنشودة ؛ بيد أن الخبر تسرب إلى إمام ، فتودد إلى أمه وقدم إليها ما بقى في يده من ثمن الفدان الذي باعه ، وأعلن توبته عن كل ما لا يرضيها وأكد لها أنه سيمجر أصحابه الذين لازمهم في أيامه الأخيرة ويعود إلى الاستقامة التي كانت سبب نجاحه الباهر في عامه الأول ، وخيل الفتى لأمه أن غرض خاله إنما هو الانتفاع بالتصرف في أملاك أبيه ، ثم وضع يده عليها نهائياً

وجاء العمدة بعد أيام يزور أخته ويشرح لها ما اتخذ من خطوات ، وطلب إليها أن تستعد في الغد لترافقه إلى المركز للشهادة وإتمام كل شيء ، فقالت : « أنا مش رايمحه ولا جاية ، ح تقعد تجرني فين ؟ » قال : « ما فيش جرجره ولا غيره ، دي كلة والردي غطاها ، عشان شغل الميرى كده » قالت : « وأنا إيش زتقني على شغل الميرى ؟ خليني بعينه »

وجاوبه صدى ضعيف من المؤذن الآخر على الجامع
القبلي : «حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! » ونهضت
أم إمام من جلستها ، وودت أن تستطيع الصلاة ،
فتستغفر لابنها وتسال الله أن يهديه ، وكم توسلت إلى
زوجها في حياته أن يعلمها الصلاة ، فكان يسخر منها
ويقول : «ما بقاش إلا النسوان كان رح يصلوا ؟ !
بكره يعملوك إمامة جامع والا مأذونة : » وإذا حرمت
المسكينة هذه الوسيلة للاتصال بخالقها ، لم تجد أمامها
إلا الرقي والتعاويد والبخور والتذود ، وقد أنفقت
على هذه الأساليب السحرية — قصد هداية ابنها —
كل ما استطاعت أن تخفيه عنه من دراهم

وخفقت أقدام الناس في الطريق مسرعين إلى
الجامع ، فلم تر أم إمام بدا من الارتداد عن الباب
بعد أن قصت الليل في عناء ولم تظفر بطائل ، وإذا
شاب طويل القامة حسن البزة بلبس (كوفية) بيضاء
وحول كتفيه عباءة ثميثة وفي يده (بارودة) ذات
(ماسورتين) يندفع إلى الباب ، وقبل أن تراه أم إمام
على الضوء الضئيل الذي كان مريباً من شعاع القمر
الغارب وشعاع الفجر السطيل ، دفع إمام الباب
بيده القوية نخطها الباب في جبهتها ، فلما تنبه إلى
وجودها صرخ في وجهها : «خبر إيه ياوليه ؟ ! انت
برؤك ما ببرألي هنا زي أم قويق ؟ أنا غرضي أفرغ
البارودة دي في بطنك في يوم من ذات الأيام ! »

ودخل بخطى رجة قوية ، ودخلت وراءه مهرولة
ويدها على رأسها وهي تقول : «الحمد لله يا خويا اللي
جيت بالسلامة ! ألف حمد : دانا كان على نافوخي
كابوس وطار ، أجهز لك لقمه يا خويا تا كاهما ؟ »
قال : «جاكي سم ف بطنك ! غوري عن وشي بلاش
دوشة أنا عاوز أستريح شوية ، وإياك انت والا
الفجر بتوعك اللي بييجوا هنا يدوشوني أقوم أقطع
اصداغكم ! » ومشى إلى فراشه الذي كان ينتظره
طول الليل ، وعلق البارودة على الحائط ، وأخرج

وارتدت كالحلة حقيرة المحتويات ، فارغة الحظيرة إلا
من بعض دجاجات وأوزات
ولما أعييت إماماً الحيل في الحصول على النقود
أبحر بالمخدرات فربح منها أموالاً طائلة ، وكانت له
في تجارتها مفاصمات كثيرة ، واستهدف لأخطار
لم يُنجه منها إلا ذكاؤه حيناً ، وإغضاء خاله حيناً
آخر ، ثم تمادى في الفتك فصار يسطو على الدور
ويسرق الغافلين ؛ ثم أسرف فصار يؤجر نفسه لمن
يريد ليقتل من يطلب إليه قتله نظير عشرات الدنانير
وكانت مواهبه الجسمية والعقلية المشهود له بها منذ
الصغر خير معوان له على اجتراح آثامه ، وصارت
له في القرية رهبة محوطة بالإجرام ، بعد أن كانت
له هيبة محفوفة بالمطف والإعجاب ، ولم يعد أحد
يجرؤ على الوقوف في طريقه ، مخافة لطائنه القوية
نهاراً ، أو نار بندقيته في غلس الظلام

عادت أم إمام بعد محادثتها القصيرة مع الخفير
الذي برز لها من دكان متولى إلى دارها ، ولكن
الفرع كان مستولياً على نفسها ، والرحلة القصيرة
ونسيم الليل المنعش قد نبها أعصابها ، فلم تحس حاجة
إلى النوم ، وإنما وقفت برهة وراء الباب الموارب ترقب
الطريق ، ثم تعبت فجلست في مكانها وعيناها شاخصتان
إلى الخارج ، ونسيم الليل البارد يغرب حدقتها
وأنفها فتغور ورق عيناها بالدموع ، وطال بها الجلوس
ومال القمر إلى الأفق وخفت لونه ، ثم تعالى أذان
الفجر من المئذنة البحرية يشق أجواز الفضاء فيزيد
السكون خشوعاً ورهبة ، وانتهت أم إمام على صوت
المؤذن الصارخ ، فإذا هي كانت قد غلبها النعاس في
موضعها ، وقد حلت أكثر من مرة أن إماماً قد عاد
وأنها عانته على طول تغيبه ، وكانت مرة تراه نادماً
يعدّها بالإقلاع ، ومرة تراه صاخباً يسكنها ويتهددها
وتتابع الأذان : «الله أكبر ! الله أكبر ! »

الرزق من وجوهه الحلال ، والرضى بالقليل المبروك
عن الكثير المحفوف بالمهالك ، ولكنها كانت تخشى
سورة غضبه إذا تقدمت إليه بمثل ذلك المقال ،
فجلست تحدث نفسها أمام الموقد بما تود أن تحدثه به
وتقول : « ارجع بقى يا ابنى يا حبيبى ! ليه بس
الشقاوة دى يا ابنى الله يجازى اللى علموك الشقاوة !
حرام عليك دانا عيني مابقت بتدوق النوم ، طول
الليل وأنا قاعدة على العتبة زى الكلبة ! »

وحانت منها التفاتة فاذا إمام واقف وراءها
بقامته المديدة مطرق نحوها فى نهم ، وكان قد
سمع طرفاً من حديثها مع الفتاة ونزل السلم قبل أن
يخس به أمه ، فلما رآته أجفت وتفتت فى صدرها
قال : « خبر إيه يا وليه ؟ انت بتخطر فى ؟ »
قالت : « بسم الله الرحمن الرحيم ! طربتنى يا إمام
يا ابنى ؟ أنا مجهز لك لقمة أهوه ، احنا بقينا الظاهر »
قال : « دقنى لي شوية ميه استحمى على ما أوصل
لحد دكان متولى وارجع ، وحضرى لى هدومى عشان
راجح مصر ، وهمت أن تتكلم وتطلب منه ألا يذهب ،
وهمت أن تبغى ولكنه تركها بخطواته المديدة وخرج
ولم يكده يصل إلى دكان متولى ويطلب تعميره ،
حتى أتاه خفير يطلبه لموافاة العمدة فى الدوار ، وفى
الدوار وجد ضابطاً وبعض الجنود فى انتظاره ورأى
بعض زملائه من الأشقياء مغلولي الأيدي ، ورأى
العمدة جالساً رمة بنظرة بتطار منها الشرر ولكنه لم
يخف ولم يتلعم ، وأنكر الاشتراك فى جريمة البارحة
أو فى غيرها ، رغم اعتراف الآخرين بعد أن جبهوا
بالشهود وصب عليهم الضابط سوط عذابه ، وأراد الضابط
أن يعامله معاملة الآخرين ، فتناول على قدميه يريد
أن يصفعه ، ولكن إماماً دفع يده فى هدوء وقال :
« خليك فى أدبك يا أفندي ولا تمدش إيدك عليّ »
ودهش الضابط إذ رأى نفسه هذه المرة أمام
شخص متعلم يحترم نفسه ويأبى أن يضرب ضرب

من جيبه صرة مفعمة وضعها تحت وسادته ،
وتهدت أمه وهي تراقبه ، وخلع حذاءه وجلبابه ،
وجر اللحاف على جسمه واستغرق فى النوم
وبدأت خيوط الصباح البيضاء تنتشر فى كل
مكان ، وراحت العصافير تسقسق على عيدان القطن
الحافة فوق الدار ، ومشت أم إمام إلى ابنتها مبروكة
وأيقظتها فى رفق ، وأمرتها أن تأخذ (المقطف) وتلحق
بزميلاتها ، فقد كانت صواحبها قد وعدنها بالمرور
بها صباحاً ليذهبن سوياً إلى السوق الأسبوعية ،
وخشيت أم إمام أن يزجج ابنها دقهن بالباب ولغظهن .
وغلست مبروكة وجهها فى عجلة وصمت وعبوس ،
وخرجت دون أن تحدث أخاها أو يحادثها ، ولما
كانا يتقابلان أو يتحادثان ، بل كان بينهما جفاء
ووحشة ، وكانت مبروكة تنقى شره بمجانبة

وظلت أم إمام تروح فى الدار ونجى وتصعد
وتهبط ، تنجز أعمال الدار ، وهى التى لم تمتد معظم
حياتها أن تمد يدها إلى خسيس الأعمال التى تراولها
الآن ، حتى اعتدل ميزان النهار ، وجاءت بنت
جارتها تستعير منها النخل ، وشرعت تقص لأم إمام
قصة طويلة فطلبت إليها هذه أن تخفض صوتها ،
وأخبرتها الفتاة أنها قد عادت من السوق حيث
سمعت الناس يتحدثون بمقتل شيخ البلدة المجاورة
على يد عصابة من الأشقياء سرقوا معظم ما وصلت
إليه أيديهم من أمواله ومتاعه ، فدق قلب أم إمام
كماداتها لدى سماعها خبر جريمة أية كانت ، مخافة أن
تكون لابنها يد فيها ، حتى لقد صارت إذا حدثها
بحدث فى أمر جريمة اقترفت بحس كأنه يتهم ابنها أو
يتهمها هى بارتكابها وتهم بالدفاع عن نفسها وعن ابنها
وجلست إلى الموقد توقده بعيدان من الحطب
(قواخ) الدرة ، وتروّح على اللب بذيل جلبابها وتنفخ
فيه بغمها ، وفكرها سارح فى الأوهام والمخاوف ،
وودت أن تنصح ابنها بالإقلاع عن غيه وابتغاء

البهايم ، وفيما هو يفكر تقدم إليه شيخ البلد وهمس في أذنه أن الشاب ابن أخت العمدة ، فبدا الأسف على وجه الضابط ، ونظر إلى العمدة الذي كان مطرقاً صامتاً ، ولم ير الضابط حاجة إلى إطالة الموقف إزاء ثبوت الأدلة ، واستأذن العمدة في تفتيش دار إمام وعرض عليه العمدة أن يرافقه ، ولكن الضابط أعفاه من هذا العمل المؤلم ، وكأنه كان يعلم يمين العمدة ألا يزور دار أخته أبداً أدفأت أم إمام الماء كما أمرها ، ولكنه لم يعد وطال غيابه وعادها القلق ، فقد كانت حياة المسكينة سلسلة متتابعة من الهواجس والخاوف ، وإنها لكذلك إذ دخل إمام تخفق قلبها ونظرت إليه نظرة البشر والأسف والاستعطاف المترجمة التي اعتادت أن تستقبله بها ، ولكن ما راعها إلا دخول الضابط وجندى وخفير في أثره ، وطلب منها أن تخطي الطريق ، فتقهقرت أمامه مذعورة ، ثم صاحت وهي تنكمش في بعض الأركان ، وتحنى وجهها بطرف وشاحها : « كده يا إمام مش قلت لك ارجع ! كده جه كلام الأم في محله والا لا ؟ تستاهل ! والله بركة ! لاجل تعرف وتحرم ! »

وتطاوت أدوار القضية وانقلت من المركز إلى القاهرة ، وأم إمام في لوعة وتكد لا يهدأ ، تعد الأيام وترقب صدور الحكم كما يرقبه الوائق من البراءة ، وقد تضعض جسمها في الحول الذي مضى على ذهاب ابنها ، وذوى جمالها ، وغاض ما بقي من بشرها ، وكان قد تقدم إليها الخاطبون بعد ممات زوجها فردتهم جميعاً احتفاظاً بشرفها فإن معاودة الزواج لا تليق بالحرائر في ذلك المجتمع ، لا سيما إذا كان لهن أبناء ، وأخيراً أتاهما نأ الحكم وهو السجن خمسة عشر عاماً ، فاطمت خديها وقالت : « يا ضنايا يا عقل امك يا ابني ! كده خالك بريك الرمية دي يا ابني ؟ » قالت ابنتها مبروكة : « وخاله ذنبه إيه ؟ خاله قال لك خليه في مدرسته كان زمانه اتعلم وبقى واحد أفندي يشرح القلب زى ابن الحاج سرحان : » وكان الحاج سرحان هذا هو شيخ البلد ، وكان ابنه مطمع فؤاد مبروكة التي كبرت ولم تتزوج بعد أن تدهورت أسرتهما هذا التدهور ، أما العمدة الذي اتهمته أخته بري ابنها فلعله كان لا يقل عنها كمداً

وسرعان ما خرج الجميع ثانية وقد حمل الجندي بندقية إمام ورسامه وصره النقود التي كانت في ثيابه ، وما عثروا به من نقود صبيحة المسكينة ، ولم يلبث غضبها الذي نار على ابنها أن تلاشى ، إذ رأيته يخرج أمامها وسط الجنود أعزل صامتاً ، فدقت على صدرها وقالت : « يا روحى يا ابني ! يا عقلى يا خويا ! واخدينك على فين يا ابني ؟ ساينى ورايح فين يا امام ؟ » وهمت أن تخرج جارية وراء القوم ، ولكن خفياً كان قد تخلف بالباب بإشارة العمدة أو إشارة الضابط ليمنعها من الخروج ، وكان هو الخفير الذي قابلته في ضوء القمر ، فذابت نفسه حسرة لما رأى في وجهها الجليل من أمارات الجزع والوله وذهب المحققون وفيهم العمدة إلى المركز يسوقون

لذلك الحادث ، لا حزنا على إمام ولكن أسى على ما أصاب شرف أسرته وشرفه من مهانة ، وقد أصيب منذ ذلك اليوم بفالج كان يلزمه الفراش من حين إلى آخر ، وكان الحاج سرحان يقوم عنه بأعمال القرية الرسمية ، ويتمنى موته من يوم لآخر كي يحل محله نهائيا ، وتم له ماتمى ، فمات العمدة كمدآ وكان ابنه ما يزال قاصراً ، فانتقلت العمودية إلى أسرة سرحان وبذلك اجتمعت المصائب على أم امام المسكينة : فقدت ابنها وضاعت ثروتها ومات ذووها واحداً بعد واحد ، وذوى عودها وانحنى ، وتقدم إلى مبروكة خاطب هو مرسى أحد أصدقائه ، إمام فقبلته على مضض مخافة ألا تجده سواء من بعده ، وأقامت أم امام وحدها في الدار ، وقد تحولت تلك الزهرة الياضعة التي زفت إلى الشيخ إبراهيم منذ نحو ثلاثين عاماً عجوزاً شماء ، يقديك منظرها وتشمئز من ابتسامها إن هي ابتسمت كما تشمئز من عبوسها ، وما لبثت ابنها بعد سنوات من الحياة الزوجية المنقصة أن ماتت وفقدت أم امام آخر قريب ، ولم تعد هي نفسها إلا ميتة على ظهر الأرض ، لا حديث لها إلا حديث الحزن والهم والتحسر على مافات ، ولا تنتقل من ماتم إلا إلى ماتم ، ولا يطيب لها إلا البكاء والاشتكاء وزيارة المقابر ، وهي التي كانت في مقتبل عمرها لا تعرف إلا الضحك ولا تألف إلا الطرب

على أن أمل أم امام في الحياة مازال قوياً كما مال أنصر الشابات وأسعد الفتيات ، يتمثل ذلك الأمل في إمام ، ويتجمع حديثها حول إمام ، ويتطرق كل موضوع تطرقه معها إلى إمام ، فإذا قال لها قائل إن نحن النذرة ارتفع ، قالت إنه لم يرتفع هكذا منذ ذهب امام ، وإذا سألتها سائل ألها مأرب في الحج قالت إنها ستفعل متى عاد امام . فبينما كان إمام بسوء مسلكه في السجن وتعديه على السجنائين يطيل مدة مقامه فيه كانت أمه تقصر هذه المدة في وهما ، حتى لم يعد

بينها وبينه إلا خمسون يوماً ، وكانت دائبة تربي الدجاج والأوز وتتاجر فيها في كل سوق أسبوعية ، وتجمع لها الحشائش من شطوط الترع وأطراف الحقول ، وتقتدر على نفسها وتدخر لإمام وعلمت من سجين عائد أن زيارة ابنها ممكنة ، فاهى إلا أن مشت إلى موسى زوج ابنتها التوفاة تسأله أن يرافقها في تلك الزيارة ، فأبى وتعلل بكثرة العمل ، ثم رضى على شرط ألا ترافقه وأن يأتيها هو بأخباره ، فاحتفت بصنع أنواع المأكولات وحملها الرجل على حماره ومضى حتى جاوز القرية المجاورة وقد اشتد وهج الظهيرة وخلت السكك من المارة ، وإذا هو يحس إنساناً يتبعه ، فالتفت فإذا أم امام سائرة وراءه ممسكة بذيل الحمار تجتهد في ملاحقته ، فقال الرجل : « بسم الله من الشيطان ! إنت طلعتي منين يا شيخه ؟ » وألح عليها في الرجوع فلم يفلح ، واضطر إلى قبول الأمر الواقع ، وانطلقا حتى بلما السجن وسمح لأهل المساجين بالمرور أمام سياج حديدي يطل المسجونون من خلفه ، ولا يسمح باتصال الحديث بين الفريقين أكثر من دقائق معدودة ، ولم يكن إمام متموداً أن يزوره أحد ولا كان ينتظر أحداً ولكنه كان واقفاً بين المساجين يتفرج على ما يجري بينهم وبين أقربائهم ، وإذا هو يلح موسى فجأة فناداه مبتسماً محبباً ، ورأته أمه على ضعف بصرها طويلاً يفرع الرجال الآخرين عظيم الشارين يدل منظره على العتو والاعتداد بالنفس ، فلوحته بيدها صائحة بقول ضاع بين لفظ الآخرين : « الحمد لله على سلامتك يا إمام ! إنشاء الله ترجع بالسلامة يا ابني ! » ولم يكذب إمام يلحها ويميزها رغم شديد تغيرها في أعوام سجنه ، حتى انقبضت أساريره وأطبق فيه بعد ابتسام وصاح في موسى : « إنت جايب دي هنا ليه ؟ روح يا خن ! » ودار وابتعد عنهما وغاب في داخل السجن قبل أن يستطيع موسى أن يفتح فيه

وبكلمة ، فالتفت إلى المرأة وقال : « عاجبك كده؟! »
 أما هي فكانت تجفف دمة سرور وأسف معاً جرت
 على خدها المنجمد ، وقالت بصوت يقطعه البكاء :
 « على رأى اللى قال : قلبى على ابنى انقطر ، وابنى قلبه
 عليه حجر! » وتركها كولات تحت رحمة السجانين ،
 وعادت أم إمام منسرحة الصدر قريرة العين ، تخبر
 كل من تراه أنها رأت إماماً وأنه عائد بعد خمسين يوماً
 وكان همام افندى قد نقل من وظيفته في المركز
 إلى بلد قص منذ سنين طويلة ، ولم يشهد تلك
 التطورات المؤسسية التي اختلفت على إمام وأمه منذ
 غادره غلاماً نجيباً في المدرسة ، ولعله لو كان حاضراً
 لكان له تأثير محمود في سير الحوادث ، والآن جاء
 لزيارة صديقه العمدة ففوجئ بخبر موته منذ سنين ،
 ولم يقابله إلا ابنه الفتى ، وروّع بأخبار الحوادث سالفة
 الذكر ، على أنه اختار خير ما في حقيقته من زجافات
 المربى والشهد والمطور ، وعلب الحلوى والصابون ،
 وطلب من ابن صديقه أن يصحبه إلى دار عمته
 ليهدي إليها كل ذلك برأبها وبذكرى الأيام السالفة
 وعارض الفتى في إهداء كل هاتيك التحف
 الثمينة إلى تلك العجوز ، وقال لهما افندى إنها لن
 تقدرها حق قدرها ، وهل يعرف الجير طعم الجزريل؟
 ولكن هماماً أصر ، وفي الطريق اقتنص الفتى
 من تلك الهدايا كل ما استطاع أن يدسه في جيبه
 ولم يدُر الحديث بين همام وبين العجوز إلا حول
 إمام طبعاً وحول عودته القريبة ، وأخبرته إخبار
 الواثق أنه لم يبق على عودة إمام إلا خمسون يوماً ،
 كانت تقول ذلك لمحادثتها وفي وهما أنها خمسة أيام
 أو خمس ساعات ، ولم تمس شيئاً من هدايا همام بل
 احتفظت بها جميعاً لإمام ، يأكل منها ويتطيب يوم
 عرسه ، وخبأها مع ثروتها التي كان يتحدث بها
 أهل القرية من أبناء الجيل الجديد ، إذ كان كثيرون
 يعتقدون أن أم إمام نجبي ، في دارها التهمة كثر أثماناً

وخرج همام من عندها مطرقاً مهموماً يبرم
 طرف شاربه الأبيض ، وقد هاله ما آل إليه حال
 أخت صديقه التي كانت من قبل مضرب المثل في
 الجمال واليسار ، وأخيراً رفع رأسه وقال للفتى :
 لقد أذبل الجهل والهمل والفقر هذه المرأة قبل
 أوامها ، كما أضع الجهل والاهمال مواهب ابنها هدرأ ،
 وإن من ظلم القدر أن يحظى أمثالنا من متوسطي
 الذكاء بنعمة التعليم ويتمتعوا بمزاياه ، على حين يخطئه
 أمثال ذلك الشاب الذي كنت أتوقع له مستقبلًا حافلاً
 لم يبق على عودة إمام إلا خمسون يوماً : ذلك
 ما كانت أم إمام تحدث نفسها به وهي سائرة على
 الطريق الزراعية ، تحمل على رأسها قفة قمح تريد أن
 تطلحنه في (واور الخواجة) ، وكانت قد ابتذلت
 حجابها منذ زمان وصارت تسير حافية ، وضعف
 سمعها وبصرها كثيراً ، وإنها تتحدث نفسها
 بالفطائر التي ستخبزها لإمام من ذلك القمح ، إذ
 دهمتها إحدى السيارات التي بدأت تنتشر إذ ذاك
 في الأرياف ، فبطحتها أرضاً وبعثرت قمحها يميناً
 ويساراً ، وحات المرأة إلى مستشفى البندر فاقدة النطق
 وبلغ الخبر القرية على لسان بعض المارين الذين
 شهدوا الحادث ، فأسرع موسى زوج ابنتها إلى
 المستشفى ، واستعادت المرأة وعيها برهة ، فقال
 موسى : « شد حيلك يا أم إمام ! » فتمتمت كأنها
 ترجع صدى قوله : « إمام ! » وكان ذلك آخر
 مالفظة وأطبقت عينها إلى الأبد ، وختمت حياتها
 الحافلة بالعناء وكمائن الآلام ، وتجشم القلق
 والخوف والاضطراب ، ومداراة الأحداث وإنكار
 القدرات ، وطول السكد والسعي والتعلق بالآمال ،
 وعاد موسى بجثتها إلى دارها العتيقة ، وتكفل
 بتشييعها إلى قبرها ، ولاحظ أهل القرية أنه استعاد
 يساره بعد فاقة وعسر ، واشترى قطعة أرض راح
 يزرعها بهمة واجتهاد فخرى أبر السعد